إبطال القنبلة النووية الملقاة

على السيرة النبوية

(مقالات قد تقلب المفاهيم التي استقرت في موضوع السيرة على مدى 12 قرنا رأسا على عقب، والتي إذا جمعت في كتاب واحد سيكون لها وقع القنبلة النووية) هذه الكلمات كانت نص رسالة، أرسلت إلى الدكتور إبراهيم من الدكتور محمود مراد ، حين أدرك الدكتور إبراهيم أنها قنبلة حقيقة ، قرر أن يبطل مفعول تلك القنبلة قبل أن تنفجر، وانبرى وحده للصد والدفاع عن سيرة خير الأنام – صلى الله عليه وسلم – فهل سينجح في إبطالها أم أنها ستنفجر؟

يرى دكتور مراد أن ابن إسحاق قد خضع وهو يكتب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم للأهواء ؛ حيث إنه كتبها تحت ضغط أبي جعفر المنصور ، مما دفعه لتشويه صورة الأمويين ، ومدح بني هاشم ، ومدح أهل المدينة لأنه منهم ، بدأ الدكتور إبراهيم بتفنيد دعواه سائلا: كيف يوالي ابن إسحاق العباسيين ويمدح أهل المدينة في آن واحد ؟ أليس من الممكن أن يغضب ذلك العباسيين ، لأنهم قرشيون ؟ وهذا الادعاء لا أساس له من الصحة ، أين مدح الهاشميين وتفضيلهم على غيرهم ؟ فإنه مثلًا لم يسجل إسلام أبي طالب ، ولم يسجل إسلام العباس مع الأوائل ، وذكر أن لم يسلم منهم سوى علي وجعفر وحمزة في العهد المكي ، فلو أنه أراد مثل ما يدعي دكتور مراد لما غفل عن مثل هذه الأمور . ويدعي أيضًا أن الأنصار والمسلمين لم ينصروا الرسول ولم يساعدوه ويحموه ، بل الله وحده هو الذي تكفل بكل ذلك ، كيف يكون ذلك أيها

الدكتور، والقرآن الكريم نص نصا صريحا على ذلك في آيات عديدة منها قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ...) .

إن الدكتور مراد ينظر إلى المؤرخين عموما نظرة سوداء متشائمة ، تجعلنا نفقد الثقة في كل التاريخ بحجة أن المؤرخين لا يكتبون شيئا يتعارض مع النظام السياسي القائم . أهذا كلام يعقل ؟! لم يكذب أحد من العلماء ابن اسحاق، أو يتهمه باختراع أحداث السيرة ، بل هناك شهادات عظيمة في حقه كما قال ابن شهاب الزهري: (من أراد المغازي فعليه بابن اسحاق). ومن الطريف أن ابن اسحاق هذا الذي يتهمه دكتور مراد بموالاة العباسيين قال عنه المستشرق الإنجليزي (ألفرد جيوم) إنه كان في سيرته أشياء لا ترضي العباسيين قد شذبها ابن هشام .

بعد ذلك بدأ الدكتور مراد بذكر آراء عجيبة - وإن شئت فقل خرافات - منها أن ابن اسحاق حط من شأن الخلافة للثلاثة (أبوبكر وعمر وعثمان). نقول له إن ابن اسحاق لم يترك موضع خير أو كرم او نصرة للإسلام والمسلمين إلا وذكره في كتابه ، ومنها أيضا أن قريشا هي التي نفت المسلمين إلى الحبشة ، واتفقت مع بعض السلطات المحلية هناك على وضعهم في معسكرات اعتقال ، وتعذيبهم ، ونحن لا نعلم من أين يأتي بمثل هذه الأقاويل العجيبة، والأعجب من كل هذا أنه قال: إن هذا الأخدود الذي ذكر في سورة البروج قد حفره بنو عبدالمطلب ، وهم من قاموا بحرق المسلمين ، وكان زعيمهم في كل هذا هو أبولهب؛ ولذلك سمي بهذا الاسم ، من أين يأتي سيادته بهذا الكلام غير المسبوق ، بل إن كل كتب السير والتفسير والحديث ترجع هذه الحادثة إلى ملك من الملوك كان يمثل بالمؤمنين ويحرقهم .

إنه يستنكر وجود مرحلة سرية في الدعوة ، ويستعجب كيف يصلي المسلمون خمس صلوات وهم مستخفون ؟ ألم يعلم أن الصلاة فرضت في رحلة الإسراء والمعراج ، وأن الأذان الذي هو السبيل لتجميع المسلمين للصلاة لم يكن قد عرف بعد ، ولو كانت هناك صلاة لكانت فردية وليست جماعة . ولم يكتفِ بهذه المزاعم فقط ولكن هذه جزء منها ، ونلاحظ أن الدكتور مراد قد ملأ رسالته بالمتناقضات، ونراه افتقد للمنطق فيما يقول ، وقد يكون متبعًا للنظرية المرجليوثية في حجد ونكران كل ماهو قديم .

إن ابن اسحاق لم يكن الوحيد العالم بسيرة النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى يتلاعب بها ، بل كان هناك علماء كثيرون ، حيث لو أخطأ أو تلاعب فيها لوقفوا له بالمرصاد، ولردوه إلى الحق ، ثم إنه لم يكن أول من كتب في السير

والمغازي ، بل هناك من سبقه مثل عروة ابن الزبير و ابن شهاب الزهري ، واللذيْن توفيا قبل قيام الدولة العباسية من الأساس ، ومع ذلك جاءا بكل ما قاله ابن اسحاق ، وابن حزم الذي كان أحد وزراء بني أمية في الأندلس ذكر في كتابه (جوامع السيرة النبوية) ما ذكره ابن اسحاق عدا بعض الاختلافات الطفيفة ، ثم إذا كان العالم صاحب انتماء معين أو متعصب لفكرة أو مذهب ، فإن هذا لا يدفعنا إلى ترك عمله وإنتاجه ، بل إن العبرة بصدقه وأمانته لا غير .

إننا لا نتحيز لابن اسحاق دون غيره ، بل إننا مع الحق دائما ، وبعد كل هذا فإننا لا نجزم بأن سيرة ابن اسحاق وابن هشام خالية تماما من العيوب وأنه لا يحق لأحد أن ينتقدها ، لا بل في كتاب ابن اسحاق أشياء لا يرتاح لها العقل أبدا مثل هذا النسب الواصل بين آدم ومحمد – عليهما السلام – لأن بينهما آلاف السنين ، وكيف

يمكن حفظ ذلك النسب على مر تلك العصور ! وكذلك خبر الرؤية التي رآها عبد المطلب جد الرسول لأربع ليال متتابعات ، تأمره بحفر زمزم وباسم مختلف في كل مرة ... إلخ ، وهذه الأشعار الغريبة التي جاء بها في السيرة ، ومما يمكن الأخذ عليه في تلك الأعداد والمسائل الإحصائية :
العدد الدقيق للمهاجرين إلى المدينة ، وأسماؤهم واحد واحد ، وعدد القتلي من بني قريظة ، وغيرها . فهذه السيرة لها ما لها وعليها ما عليها ، ,وأما القدح فيها بهذه الطريقة التي تفتقر إلى المعرفة التامة ، والإلمام بكل ما يتعلق بالموضوع ، والاحتكام إلى منطق سليم .

كانت تلك المناظرة الرائعة من أنفع وأمتع ما قرأت في هذا الباب ، حيث أرى فيها اتباع الحق ، وعدم التعصب والتحيز ، والاحترام الشديد للخصم ، فالدكتور إبراهيم يضرب لنا أروع الأمثلة في الأدب

والخلق القويم ، ويعلمنا كيف نكون خصوما بشرف ونزاهة ، فجزاه الله عنا كل الخير .